صلح الحديبية

كانت الفرصة مواتية لزيادة البيت فعزم الرسول على زيارته مع الزائرين من العرب

... وفى السنة السادسة أيضًا فُرض الحج والعمرة، ورأى رسول الله ﷺ فى منامه ذات ليلة أنه دخل المسجد الحرام فى أصحابه. آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، لا يخافون عدوًّا يصدهم ولا مانعًا يمنعهم؛ فاستبشر بذلك، وقص ما رأى على أصحابه ، فاستبشروا وفرحوا، واستيقنوها حقيقة واقعة لا شك فيها؛ فإن رؤيا الأنبياء حق، وإلهام من الله لهم بما سيكون من قابل أمرهم. وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون فى أشد الشوق إلى زيارة البيت الحرام، فحركت هذه الرؤيا كوامن الشوق والحنين فى نفوسهم، وعزم صلى الله عليه وسلم على أن يزور البيت فى عامه هذا.

وكانت الفرصة مواتية والظروف كلها مهيأة لهذه الزيارة؛ فالأمن فى المدينة مستتب بعد خلوها من اليهود؛ والمنافقون

مَخْضُودُو الشوكة مكسورو الجناح بعد ذهاب أنصارهم؛ والأعراب فى البادية قد أمنت جوانبهم بعد ما عاينوا من يقظة المسلمين لمكايدهم، وقوة بأسهم فى الذود عن حماهم والدفاع عن عقيدتهم؛ ورهبة الإسلام قد تملكت القلوب وزلزلت النفوس، بعدما بدا للناس من دفع الله عنه وتأييده له؛ وموسم الزيارة قد أهل وتهيأت له العرب قاصيها ودانيها.. فلم لا ينتهز المسلمون هذه الفرصة، فيقصدوا البيت مع القاصدين، ويدخلوه مع الداخلين ؟

ولعل قريشًا قد لانت عريكتها وخَفَّضت من غُلَوائها فى عداوة الإسلام، بعدما جربت فى محاربته كل وسائل القوة وكل وسائل اللين؛ فلم تستطع أن تنال منه منالا؛ بل كلما حاولت أن تضعفه زاد قوة، وكلما حاولت أن تطفئه زاد نورًا.. وكلما ازدادت محاولات القضاء عليه ازداد الناس فيه دخولا وعليه إقبالا. على أنه مهما يكن من أمر قريش فليس لها أن تمنع المسلمين وحدهم زيارة هذا البيت، الذى جعل للناس سواء العاكف فيه والبادِ، فإن هى فعلت فقد أشهدت الناس على ظلمها وعدوانها، وألزمت نفسها الحجة ببغيها وطغيانها.

ولكى يقطع رسول الله ﷺ على قريش كل حجة، ويؤكد لها وللناس أنه إنما أتى إلى البيت زائرًا مسالمًا، «خرج فى

ذى القعدة مُعْتَمِراً لا يريد حربًا، واستنفر العرب ومَن حوله من أهل البوادى ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت»[1] ولكن الأعراب ظنوا أن الحرب لابد واقعة بينه وبين قريش، وأن الرسول وأصحابه لا محالة هالكون فى هذه الواقعة، فأبطأ عليه كثير منهم، وأحجموا عن أن يشاركوا فى هذه الرحلة الخطيرة، وخشُوا أن يلقوا بأيديهم إلى التهلُكة. «فخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائرًا للبيت ومعظمًا له»[1].

خرج الرسول فى أصحابه بلا سلاح

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وأخذ معه من نسائه أم سلمة. وخرج من المدينة مع هلال ذى القعدة (فبراير ٦٢٨)، ومعه من المسلمين نحو ألف وخمسمائة، لا يحملون من السلاح غير السيوف فى أغمادها، وهو السلاح الذى لابد منه للمسافر فى بلاد العرب. وركب صلى الله عليه وسلم ناقته «القَصْوَاء»، وسار بأصحابه حتى وصل إلى «ذى

---

(١) ابن إسحاق.

الحُليْفَةِ»، على نحو ستة أميال من المدينة، فصلى هنالك الظهر؛ ثم دعا بالبُدْن فجَلَّلهَا وأشْعَرها وقَلَّدها القلائد[1]، وفعل أصحابه بما ساقوا من الهدى مثل ما فعل؛ ثم أحرم وأحرم معه أصحابه بالعمرة، واتجهوا نحو مكة محرمين يتجاوبون بالتلبية: «لبَّيْكَ اللَّهُم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»! فكان كل من يراهم فى هذا المظهر الجميل لا يشك فى أنهم قد خرجوا مسالمين، لا يبغون إلا أن يؤدوا مناسكهم، ويقضوا ما فرض الله عليهم من زيارة بيته المحرم. وقدَّم رسول الله ﷺ بين يديه عبَّاد بن بشر فى عشرين فارسًا، ليكونوا طليعة أمامهم يرتادون لهم الطريق؛ وبعث بشر ابن سفيان عَيْنًا له إلى قريش، ليعلم له عِلْمَهم ويستشِفَّ له نواياهم.

صممت قريش على ألا يدخل محمد عليها مكة وأعدت للحرب

أما قريش فقد أخذتها حميَّة الجاهلية حين بلغها أمر هذا

---

(١) جلل الهدى: كساها، وأشعرها: ميزها بعلامة تشعر بأنها هدى، وقلدها: علق فى عنقها شيئًا كالقلادة، وكانت هذه عادة العرب فيما يهدون إلى البيت الحرام من ذبائحهم.

المسير، وصممت على ألا يدخل محمد عليها مكة مهما كان الأمر، وأخذت تعد عدتها للحرب؛ فأرسلت خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل في مائتين من فرسانها إلى «كُراع الغَميم»، ليعترضوا طريق المسلمين عند مدخل مكة، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش ومن رجال ثقيف، وخرجوا إلى «بَلْدَح» بظاهر مكة، فضربوا بها القباب والأبنية. ثم عسكروا هنالك بنسائهم وصبيانهم، ووضعوا على الجبال عيونًا يراقبون حركات العدو، ويوحي بعضهم إلى بعض بالصوت: «فعل محمد كذا وكذا، فعل محمد كذا وكذا»[1] حتى ينتهي إليهم في معسكرهم.

فلما بلغ رسول الله ﷺ «عُسْفان» وصار على بعد مرحلتين[2] من مكة، لقيه بشر بن سفيان فأنبأه نبأ قريش؛ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب! ماذا عليهم لو خَلَّوْا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين؟ والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله أو تَنْفَرِد هذه السالِفَة[3]»!

(١) إمتاع الأسماع.
(٢) المرحلة: مسيرة يوم بالإبل، وهي نحو ٣٠ كيلومترًا، أو ٢٠ ميلًا.
(٣) السالفة: صفحة العنق، وانفرادها كناية عن الموت.

الرسول يتجنب جهده بواعث القتال

ولكن رسول الله ﷺ لم يكن راغبًا قط فى قتال، وكان حريصًا أشد الحرص على أن يجعل رحلته هذه سلمية خالصة. بعيدة عن كل ما يشوبها من أسباب العداوة، وعن كل ما يتعارض مع طبيعتها وأغراضها. فلما رأى أن قريشًا تهيأت لحربه، وأرسلت له طلائعها تعترض طريقه، وتحول بالقوة بينه بين ما يريد من زيارة البيت.. أراد أن يعدل عن ذلك الطريق الذى به قريش، فقد تلجئه قريش إلى العنف وهو لا يريده، وتضطره إلى القتال وهو لا ينتويه، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم»؟ فجاء رجل من قبيلة أسلم، فسلك بهم طريقًا وَعْرًا شَقَّ على المسلمين اجتيازه، ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى؛ فأمر رسول الله ﷺ أن يسلكوا ذات اليمين، حتى بلغ مهبط «الحديبية» من أسفل مكة، وصار منها على مسيرة يوم واحد.

وهنا بركت ناقته على حين فجأة، فجعل الناس يصيحون بها لتنهض، ولكنها ظلت فى مكانها باركة؛ فدهش الناس لما عراها، وقالوا: «خلأت القصواء»! - أى حَرنت - فقال

رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة.. والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطة يسألوننى فيها صلة الرحم، وتعظيم حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها»! ثم أمر الناس أن ينزلوا حيث كانوا.

وكان الوادى جافًا ليس به سوى حفرة واحدة فيها قليل من الماء، فجعل الناس يأخذونه قليلا قليلا حتى نزحوه، ثم شكَوْا إلى رسول الله العطش؛ فجاء صلى الله عليه وسلم فجلس على شَفير البئر، ثم طلب إليهم أن يأتوه بدلو منها، فأُتى به، فغرف منه غرفة، ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها وقال: «دعوها ساعة». فتركوها غير بعيد، فما لبث ماؤها أن فاض حتى صار غَمْرًا، فارتوى الناس وتطهروا، وسقوا ركائبهم وأنعامهم، ومازالوا يرتوون ويأخذون حاجتهم من الماء حتى ارتحلوا.

الرسول يعلن رغبته فى السلم لسفراء قريش

فلما استقر صلى الله عليه وسلم بالحديبية، أتى إليه بُدَيْل ابن وَرْقاء فى نفر من رجال خزاعة، يسألونه عن سبب مجيئه ومجىء المسلمين معه؛ وكانت خزاعة مُوالية لرسول الله ﷺ وآله من قديم - ويقول بعض الرواة: إن قريشًا هى التى أرسلت بديلا وأصحابه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ ويقول

بعضهم : إن بديلا هو الذى ذهب إلى رسول الله من تلقاء نفسه - فلما جاء بديل إلى رسول الله أخبره بما عزمت عليه قريش، وسأله عن سبب مجيئه؛ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «إنا لم نأت لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين؛ فإن شاءت قريش ماددْناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس؛ وإن أبوا، فو الذى نفس محمد بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى»[1] ! فرجع بديل وأصحابه إلى قريش فقالوا لهم : «إنكم تَعْجَلون على محمد؛ إنه لم يأت لقتال، إنما جاء زائرًا للبيت» فقالوا : «وإن كان جاء لا يريد قتالا ! فوالله لا يدخلها علينا عَنْوَة[2] أبدًا، ولا تتحدث عنا العرب بذلك أبدًا» !

سفارة عروة بن مسعود

فقام فيهم عروة بن مسعود سيد ثقيف، وكان رجلا حازمًا حكيمًا، فقال لهم : «إن هذا الرجل عرض عليكم خُطَّةَ رُشْد فاقبلوها ! دعونى آته». فقالوا : «ائته». فأتاه فقال له : «يا محمد، إنى تركت قومك قد استنفروا لك؛ وهم يقسمون بالله لا يخلُّون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم[3] ! وإنما أنت من

---

(١) أى حتى الموت فى سبيل الدفاع عن غرضى. (٢) عنوة : على رغمنا.

(٣) تجتاحهم : حتى تستنفدهم قتلا.

قتالهم بين أمرين: إما أن تجتاح قومك، فلم نسمع برجل اجتاح قومه قبلك؛ وإما أن يخذُلك من نرى معك، فإنى لا أرى معك إلا أوباشًا[١] من الناس لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم. فنال منه[٢] أبو بكر وقال له: «ويحك! أنحن نخذله»؟.

.. وكان عروة فى خلال حديثه يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، جريًا على عادة العرب! عند الملاطفة والرغبة فى التواصل والتراحم، والمغيرة بن شعبة - وهو ابن أخى عروة - واقف على رأس رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ ومعه السيف وعليه المِغْفَر، فكلما مدَّة عروة يده إلى لحية رسول الله، قَرَع المغيرة يده بكعب السيف وهو يقول: اكفُفْ يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك[٣]»! فيقول عروة وهو لا يعرفه: ويحك! ما أفظَّك وما أغلظَك!» فيبتسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وانصرف عروة عن رسول الله ﷺ وهو مأخوذ بما رأى من حب أصحابه له. وتعظيمهم إياه، وتسابقهم إلى طاعته، فرجع إلى قريش يقول لهم: «يا معشر قريش، إنى جئت كسرى فى

---

(١) أوباش الناس: رعاعهم.

(٢) نال منه: شتمه وقبحه.

(٣) اكفف يدك: قبل ان أقطعها.

ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى - والله - ما رأيت مَلِكًا فى قوم مثل محمد فى أصحابه! والله ما يُحِدُّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرئ فيفعل! وقد حَزَرْتُ القوم، فرأيت قومًا لا يبالون ما يُصنع بهم إذا منعوا صاحبهم، فَرَوْا رأيَكم. وقد عرض عليكم خطته، فمادُّوه يا قوم[1]، واقبلوا ما عرض عليكم، فإنى ناصح لكم، مع أنى أخاف ألا تُنصَروا عليه»! فلم يستمع القوم لرأى عروة، ولم يستجيبوا لما رغبهم فيه من الصلح، فانصرف هو ومن معه إلى الطائف.

سفارة الحليس سيد الأحابيش

فقال الحُلَيْس بن عَلْقَمة سيد الأحابيش: «دعونى آته»، فقالوا: «ائته». فلما أشرف الحليس على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون الهدى، فابعثوا الهدى فى وجهه». فبعثوه، واستقبلوه يَضِجُّون بالتلبية. فلما رأى الهَدْى يسيل فى الوادى عليه القلائد، ورأى القوم محرمين قد تَفِلُوا وشَعِثوا[2].. رجع ولم يصل إلى النبى إعظامًا

(١) مادوه: اجعلوا بينكم وبينه مدة تسالمونه فيها ويسالمكم.
(٢) تفلوا وشعثوا: اتسخوا وتشعثت هيئاتهم من أثر السفر.

لما رأى، وقال لقريش : «أما والله ما حالفناكم على أن تصدوا عن بيت الله من جاءه معظمًا لحرْمته، مؤديًا لحقه! والذى نفسى بيده لَتُخَلُّنَّ بينه وبين ما جاء له، أو لأنفِرنَّ بالأحابيش نَفْرة رجل واحد»! فقالوا له : «يا حليس، كل ما رأيت مكيدة من محمد وأصحابه، فاكفُفْ عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به».

سفراء الرسول إلى قريش

ورأى رسول الله ﷺ أن يبعث من قِبله رسولا إلى قريش، ليؤكد لهم أنه إنما جاء إلى البيت زائرًا لا غازيًا، ومسالمًا لا محاربًا، فبعث إليهم خِرَاش بن أمية الخزاعى، ولكنهم لم يقبلوا منه شيئًا، وعَقَروا به جمله، وهموا به ليقتلوه، فمنعه منهم الحليس سيد الأحابيش. فاحتملها منهم رسول الله ﷺ وغفرها لهم، وإن كانت مهانة الرسل لا تُحتمَل ولا تغتفَر، ثم أراد أن يبعث إليهم رجلا يكون أقرب إليهم رحماً، فبعث إليهم عثمان ابن عفان، فلم يستطع عثمان أن يدخل مكة عليهم حتى أجاره أبَان بن سعيد بن العاص، وكان ابن عم عثمان، رضى الله عنه. فلما التقى عثمان برجال قريش بلّغهم رسالة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأكد لهم صدق نية الرسول فيما قصد إليه

من زيارة البيت؛ ولكنهم أبوا أن يُصيخوا لصوت الحق أو يستجيبوا لداعى السلام. وحاول عثمان أن يقنعهم بكل وسيلة فلم يقتنعوا، وطالت مراوضة عثمان لقريش حتى حُبس بينهم ثلاثة أيام، وشاع بين المسلمين أنه قتل. ومازالت هذه الشائعة تتأكد وتتسع، حتى وصلت إلى رسول الله ﷺ وكأنها حقيقة لا شك فيها.

بيعة الرضوان

وهنا تغير الموقف، وتبدل الحال غير الحال، وصار لابد أن تعالَج المشكلة بطريقة أخرى.. لقد أعلن رسول الله ﷺ نيته واضحة صريحة، وأظهر بالقول وبالفعل رغبته فى السلم منذ أول لحظة خرج فيها من المدينة، ودعا قريشًا بكل وسائل اللين والموادعة إلى أن تبادله هذه الرغبة، حَقْنًا للدماء، وإبقاء على صلات الرحم، وصيانة لحرمة البيت الحرام والشهر الحرام، وأعْذَر إليهم من نفسه غاية الإعذار. ولكن قريشًا ركبت رأسها وتجاوزت حدودها، حتى لم يبق فى قَوْس الصبر مَنْزَع[1]، ولم يعد هناك بد من أن تقابَل القوة بالقوة، وأن يُفَلَّ الحديد بالحديد..

(١) منزع : أى أن الصبر نفد، وأصبحت الحالة لا تطاق ولا تعالج بالصبر بعد ذلك.

وهنا قال صلى الله عليه وسلم: «لا نبرح حتى نناجز القوم»! ودعا المسلمين إلى مبايعته على القتال، فأسرع الناس يبايعونه حتى تَدَاكُّوا[1] وَوطِئوا متاعهم؛ ثم لبسوا السلاح وتهيأوا للحرب، وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها، وشدت سكينًا فى وسطها. وبايع رسولُ الله ﷺ عن عثمان وقال: «إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله، فأنا أبايع عنه». فضرب شماله بيمينه وقال: «هذه لعثمان».

لم يكن الصحابة، رضوان الله عليهم، يحملون من السلاح سوى السيوف، ولم يكن عددهم يقاس شيئًا إلى أعداد قريش، ولم يكن عليهم من لباس الحرب ما يقى أجسامهم ضربات العدو عند اللقاء، وكانوا يعلمون أنهم يجازفون بأرواحهم حين يقدمون على القتال فى هذه الظروف.. ولكنهم مع كل ذلك أقدموا على البيعة فى حماسة وقوة، وباعوا نفوسهم لله فى رضًا واغتباط، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وتقبل البيعة منهم وباركها لهم، فكانت فتحًا مبينًا فتح الله لهم به أبواب النصر والخير، وسار الإسلام بعدها قُدُمًا فى طريق الغَلَب والقوة والظهور، حتى غلب على كل ما حوله من الأراضى والبقاع: ﴿لقدْ رَضىَ الله عن المؤمنين إذْ يُبايعونك تحتَ الشَّجرة فَعَلِمَ ما فى قلوبهم فأنَزل

(١) تداكوا: تلاحموا وتداخل بعضهم فى بعض من شدة تزاحمهم.

السَّكِينَةَ عليهم وأثابَهم فتحًا قريبًا * ومَغانِمَ كثيرةً يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيمًا﴾[1].

قريش تعود إلى رشدها وتسعى إلى الصلح

وبلغ قريشًا أمر هذه البيعة، وردَّها هذا العمل الجرىء إلى رشدها، فأخذت تعيد النظر فى موقفها، وتفكر فى أمرها على هدى وبصيرة، وتستنبئ الماضى والحاضر عما عسى أن يكون من شأنها وشأن محمد فى المستقبل المجهول.. ولعلها قدرت فيما قدرت أن هؤلاء الذين باعوا نفوسهم لله، وأقدموا على الموت بهذه الحمية، وهم على هذه الحال من ضعف العدة وقلة العدد.. لم يفعلوا ذلك إلا وهم على ثقة بنصر الله لهم لأنهم على الحق؛ ولم تكن قريش تجهل أنهم على الحق فيما يطلبون من زيارة هذا البيت، وأنها على الباطل فيما تريد من صدهم عنه، ولم تكن كذلك تجهل أن الله ينصر الحق ويخذلُ الباطل. فلو أنها التقت بالمسلمين فى هذه الواقعة فانتصروا عليها، لكان فى ذلك القضاء على سمعتها بين العرب. ولقد بَلَتْ قريش من مواقف المسلمين ما بلت، ورأت من صدق دفاعهم عن الحق ما رأت، فكانت خليقة أن تتعظ بما رأت من كل ذلك، وأن

(١) سورة الفتح آيتا ١٨ ، ١٩.

تَرْعَوى عما هى فيه من عناد وبغى..

لعل قريشًا فكرت فى كل هذا، وقدرت على ضوء ماضيها وحاضرها ما عسى أن يكون من أمر مستقبلها، وقارنت بين الحق والباطل فى موقفها، وبين الخير والشر فى أمرها، فبدا لها أن الصلح خير من التمادى فى البغى والعدوان، وأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل، وأن الجنوح إلى السلم أبقى على هيبتها من قتال لا تدرى ماذا تكون عاقبته، ولا سيما بعد ما بدا لها من الأحابيش ومن رجال ثقيف من مظاهر التفرق عنها، وعدم الرضا عن موقف العناد الذى تقفه من محمد وأصحابه..

لعل قريشًا قدرت كل هذا، وقدرت معه أنها بقتالها محمدًا ستُحِل البيت الحرام والشهر الحرام، وستَسُنُّ بذلك سنَّة سيئة قد لا يعود وبالها إلا عليها.. ففاءت إلى الرشد وعادت إلى الصواب، ورأت أن تستجيب إلى دواعى السلم، فأرسلت سُهَيْل ابن عمرو فى نفر من رجالها يفاوضون محمدًا فى الصلح، على أن يرجع عن قريش عامَه هذا، إبقاء على سمعتها وحفظًا لكرامتها بين العرب.

سهيل بن عمرو يفاوض النبي فى شروط الصلح

واستقبل رسولُ الله ﷺ سهيلَ بن عمرو مستبشرًا بقدومه، حتى قال لأصحابه حين رآه مقبلا من بعيد: «قد سَهُل أمركم!.. القوم ماتُّون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح. فابعثوا الهدى، وأظهروا التلبية، ولعل ذلك يُلين قلوبهم». فلبَّوْا من نواحى العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية. فلما انتهى سهيل إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تكلما فأطالا الكلام، وتراجعا فأطالا المراجعة، ثم اتفقا على أن يتهادن الفريقان عشر سنين، وأن يؤجِّل المسلمون عُمرتهم إلى العام القابل، وأن يردوا إلى قريش من جاءهم منها ولا ترد قريش إليهم من جاءها منهم، وأن يكون التحالف حرًّا خلال هذه الهدنة، فمن شاء أن يحالف محمدًا من العرب فلا حرج عليه، ومن شاء أن يحالف قريشًا فلا حرج عليه.

أثارت شروط الصلح غضب المسلمين ولكن الرسول قبلها

وقبل رسول الله ﷺ هذا الصلح على ما فى ظاهره من غبن وحَيْف، وجرى فى شأنه على غير ما كان يجرى عليه من

مشاورة أصحابه فيما يهمهم من الأمر. وعلى رغم ما ب عليهم يومذاك من ألم وضجر فإنه لم ينزل على رأيهم فيه، ولم يأخذ برغبتهم؛ فقد كره المسلمون الصلح وبَرِموا به، وداخلهم منه أمر عظيم، حتى جعلوا يتساءلون فى دهشة: "أنَرُد إلى الكفار من جاءنا مسلمًا، ونرجع عن البيت وقد وُعدنا أن نطوف به".. ؟ وحتى وثب عمر بن الخطاب إلى أبى بكر يقول له: "يا أبا بكر، أليس برسول الله".. ؟ قال: "بلى". قال: "أولسنا بالمسلمين".. ؟ قال: "بلى". قال: "أوَليسوا بالمشركين".. ؟ قال: "بلى". قال: "فعلام نُعطِى الدَّنِيَّة[1] فى ديننا".. ؟ قال: أبو بكر: "أيها الرجل، إنه رسول الله ولن نعصى رأيه، فاستمسك بغَرْزِه حتى تموت، فوالله إنه لَعَلَى الحق.. !"

ولكن عمر كان ضيق الصدر شديد الأسى، لما رأى من تساهل رسول الله ﷺ ولينه، ومن تعنت قريش وصلابتها، فلم يلبث أن أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا رسول الله، ألست برسول الله".. ؟ قال: «بلى». قال: "ألسنا على الحق وعدونا على الباطل".. ؟ قال: «بلى». قال: "فعلام نعطى الدنيَّة فى ديننا إذن".. ؟ فقال رسول الله، صلى

(١) فعلام: لم نرضى بالموقف الدون.

الله عليه وسلم : « أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيِّعَنى » !

وكان تشدد سهيل فى صياغة العقد وتساهل رسول الله ﷺ ذلك أيضًا، سببًا آخر من أسباب غضب المسلمين وضيقهم بهذا الصلح، فقد أبى سهيل إلا أن يُكتَب العقد كما يريد هو، لا كما يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرضى بذلك رسول الله، وأمر أن يكتب كما يريد سهيل.

قال ابن إسحاق : « ثم دعا رسول الله على بن أبى طالب فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ». فقال سهيل : "لا أعرف هذا، ولكن اكتب : باسمك اللهم". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « اكتب : باسمك اللهم ». فكتبها. ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو ». فقال سهيل : "لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك". (قال) : فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله سهيل بن عمرو. . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض؛ على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليِّه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه؛ وأن بيننا

عَيْبَةٌ مكفوفة؛ وأنه لا إسلال ولا إغلال[1]؛ وأنه من أحب أن يدخل فى عَقْد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه؛ وأنك ترجع عنا عامَك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عامٌ قابل خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب: السيوف فى القُرُب[2]، لا تدخلها بغيرها»... فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين..

أبو جندل بن سهيل

وكأنما أراد الله أن يمتحن صبر المؤمنين وقوة إيمانهم، فساق إليهم فى هذه الساعة أبا جندل بن سهيل بن عمرو، هاربًا من مكة يَرْسِف فى قيوده. وكان أبوه سهيل قد أوثقه فى الحديد وسجنه، فخرج من سجن سهيل، واجتنب الطريق وركب الجبال حتى هبط بالحديبية، ففرح به المسلمون، وتَلَقَّوْه حين هبط من الجبل، فسلموا عليه وآوَوْه؛ فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبى جندل، فقام إليه فجعل يضرب وجهه وأخذ بتَلْبِيبِه[3]؛ فصلح

(١) أى أن ما بيننا من عداوة يظل دفينًا فى الصدور، ولا يستغل فى غدر أو خيانة.

(٢) القرب: جمع قراب، وهو غمد السيف الذى يوضع فيه فيحفظه من التلف.

(٣) التلبيب: مجامع الثياب حول العنق.

أبو جندل بأعلى صوته : "يا معشر المسلمين، أأرَدُّ إلى المشركين يفتنونى فى دينى".. ؟ فزاد ذلك المسلمين شرًّا إلى ما بهم، وجعلوا يبكون لكلام أبى جندل.. وقال سهيل بن عمرو لرسول الله : "هذا أول من قاضيتك عليه.. رُدَّه.. والله لا أكاتبك على شىء حتى ترده إلى".. فرده عليه وكلمه أن يتركه، فأبى سهيل وجعل يضرب وجهه بغصن من شوك. فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «هَبْه لى أو أجره من العذاب». فقال : "والله لا أفعل".. ! فأجاره بعض أصحاب سهيل فكف عنه. ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال : «يا أبا جندل، اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعَفين فرجًا ومخرجًا ! إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطَوْنا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم».

وأخذت الحمية عمر بن الخطاب فعاد إلى رسول الله ﷺ يسأله كما سأله من قبل، ثم ذهب إلى أبى بكر يسأله كذلك، ثم وثب إلى أبى جندل يمشى إلى جواره ويقول له : "اصبر أباجندل، فإنما هم المشركون، وإنما دَمُ أحدهم دَمُ كلب"!.. وجعل يُدْنى منه قائم السيف[1]، رجاء أن يأخذه فيضرب به أباه، ولكن أبا جندل ضن بأبيه أن يقتله. وخضع لواقع الأمر

---

(١) قائم السيف : مقبض السيف.

حتى يأتى الله بالفرج، وعاد إلى مكة يرسف فى قيوده، والمسلمون ينظرون إليه فى كمد وحسرة، وعيونهم تفيض من الدمع حَزَنًا ألا يجدوا سبيلا إلى إنقاذه!

المسلمون يستولى عليهم الحزن حتى يكاد يقتل بعضهم بعضا

فلما انصرفوا قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «قوموا فانحروا واحلقوا وحِلّوا[1]».. فلم يجبه أحد إلى ذلك؛ فرددها ثلاث مرات فلم يفعلوا؛ فدخل على أم سلمة وهو شديد الغضب، فقالت: "ما شأنك يا رسول الله"؟ قال: «هلك المسلمون! أمرتهم فلم يمتثلوا»!.. وذكر لها ما لقى من الناس. فقالت: "يا رسول الله، لا تَلُمْهم؛ فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح".. ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم منهم أحدًا، وينحر بُدْنه ويحلِق رأسه. فخرج فلم يكلم أحدًا حتى قام فنحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد يقتل بعضهم بعضًا من الغم..!

قال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس: حلق رجال

---

(١) حلوا: تحللوا من إحرامكم.

يوم الحديبية وقصَّر آخرون، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله المحلِّقين » ! قالوا : "يا رسول الله، والمقصرين"؟ قال : « يرحم الله المحلقين » ! قالوا : « يا رسول الله، والمقصرين"؟ قال : « يرحم الله المحلقين » ! قالوا : "يا رسول الله، والمقصرين"؟ قال : « والمقصرين ».. قالوا : « يارسول الله؛ فلم ظاهرت الترحم على المحلقين دون المقصرين » ؟ قال : « لأنهم لم يشُكُّوا ».

الفتح المبين

ومع أن المسلمين أجابوا دعوة الرسول ﷺ، فنحروا هديهم وحلقوا رءوسهم وحلوا من إحرامهم، فإنهم كانوا لا يزالون فى حيرة من أمر هذا الصلح الذى أنفذه الرسول على رغمهم، وعلى رغم ما كان يبدو لهم فيه من حَيْف وغَبْن؛ فجعلوا يسألون رسول الله عما بشرهم به من دخول المسجد الحرام وهم لم يدخلوه، فيقول لهم : « أكنت حدثتكم أنكم تدخلونه هذا العام » ؟ فيقولون : "لا". فيقول : « فإنكم ستدخلونه وتطوفون به إن شاء الله ». فيسألونه : "وكيف نرد إلى الكفار من جاءنا مسلمًا ولا يردون إلينا من جاءهم مرتدًّا"؟ فيقول لهم : « من ذهب منا إليهم فلا رده الله؛ ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فإن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا ».

وأقام رسول الله ﷺ بالحديبية بضعة عشر يومًا - وقيل عشرين - ثم انصرف راجعًا إلى المدينة. وفيما هو فى الطريق أنزل الله تعالى عليه سورة «الفتح»، فأقبل الناس يسرعون حتى اجتمعوا إليه، فقرأ عليهم : ﴿إنا فتحنا لك فَتْحًا مُبِينًا﴾. فقال عمر : "أَوَ فَتْحٌ هو يا رسول الله"؟ قال : «نعم، والذى نفسى بيده إنه لَفتح»!

وقال رجل من أصحابه : "ما هذا بفتح.. لقد صُدِدنا عن البيت وصُدّ هَدْيُنا، وردّ رسول الله ﷺ رجالا من المؤمنين كانوا خرجوا إليه". فبلغه، صلى الله عليه وسلم، قول ذلك الرجل، فقال : «بئس الكلام! بل هو أعظم الفتح.. لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية[1]، ويرغبوا إليكم فى الأمان؛ ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردكم سالمين مأجورين؛ فهو أعظم الفتوح!.. أنسيتم يوم أحد إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا»؟ فقال المسلمون : "صدق الله ورسوله! هو أعظم الفتوح - والله - يا نبى الله.. ما فكرنا فيما فكرت فيه..

(١) يسألوكم : يسعوا إليكم ليقاضوكم فى أمر الصلح.

ولأنت أعلم بالله وأمره منا!".

وهكذا رجع المسلمون من الحديبية وقد اطمأنت قلوبهم وسكنت جوانحهم، وأيقنوا أن الله أراد بهم الخير فيما أراد لهم من أمر هذا الصلح؛ ولكنهم لم يكونوا بعدُ يدرون أين يكون هذا الخير، ولا متى يكون، ولا كيف يكون.